هرِمنا

جلست أمام جهاز التلفزيون، منتقلًا من محطة لأخرى، لا أدري ماذا أريد أو عمّا أبحث. قلّما أشاهد التّلفاز مؤخّرًا، بينما كنت مدمنًا على ذلك في الماضي. ببساطة لا صبر لديّ لمشاهدة فيلمًا أو مباراة كرة قدم لمدة ساعتين، كما كنت أفعل سابقًا. تغيّرت أطباعنا وأمزجتنا وعاداتنا. أصبحت الحياة أكثر تعقيدًا، وما كان يسُرُّك في الماضي لن يُسعدك اليوم. ها نحن نَحِنُّ إلى السّاعة التي ذهبت بلا عودة أو رجوع، كلّ شيء فارقك تشعر بالحنين إليه حتى وإن كنت حينها لا تميل إليه كثيرًا. أجد نفسي كثيرًا، بل يوميًا، مُمسكًا هاتفي أنتقل من مقطع لآخر في "التيك توك"، أحيانًا لساعات. مقاطع قصيرة متنوعة. لا صبر لدي للأفلام الطّويلة. أحتاج إلى تلقّي الأمور "بوجبات" صغيرة قصيرة.

هذه المرّة لفت انتباهي فيلم وثائقي من دولة التشيلي. يتحدث الفيلم عن شكوى قدمتها إحدى السّيدات (سيدة ذات مركز مهم) ضد أحد بيوت المسنّين الذي تقطنه والدتها. ادّعت السيّدة أنّ الطّاقم يُعامل أمّها بصورة سيئة ويسرق العاملون نقود النزلاء وحلاهم. قامت الشّرطة بإدخال عميل لها لمدة ثلاثة شهور إلى بيت المسنّين. كان العميل رجلًا مسنًّا عمره 84 سنة لكنه لا يزال بقوته الذهنيّة والجسديّة.

لا أخفي عليكم أنني شعرت بالحزن الشّديد لما رأيته من مشاهد الرّجال والنّساء كبار السّن، حزن رافقه الاكتئاب والإحباط. شعرت أنّه ينطبق عليّ المثل الشّعبي: "أجا يكحلها عماها". كنت ضجرًا فأصبحت مكتئبًا وحزينًا. من الجدير بالذّكر أنّ المحقق لم يجد أيّ مخالفات أو خروقات خلال الثّلاثة شهور التي تواجدها في بيت المسنّين. الاستنتاج الوحيد الذي لفت انتباهي أنّ ابنة المرأة المسنّة، التي قدّمت الشّكوى، لم تحضر لزيارتها خلال الشّهور الثّلاثة.

لا شكّ أنّ العمر يمرّ سريعًا كلمح البصر، لا تخجلوا... كلّنا كبرنا!!

علينا أن نعترف أننا كلنا كبرنا مهما كان عمرنا. يقولون أنّ الانسان يشعر بالكبر والشّيخوخة عندما يموت أبوه وأمه. عندها يشعر فجأة أنّه قد هَرِم.

صحيح أنّ معظم المسنّين العرب يعيشون مع عائلاتهم أو قريبًا منهم. قلّما نجد أشخاصًا في بيوت المسنّين. نحن -العرب- نشعر بالعار لتواجد أهلنا في بيوت المسنّين، رغم أنّ الوضع آخذ بالتغيّر. رغم تواجد الأهل حولهم إلّا أنهم يشعرون بمرض العصر وهو "الوحدة".

كثيرًا ما أجد نفسي جالسًا وحدي في البيت، ممسكًا هاتفي، أعيش عالمي وعالم هاتفي. تخيّلوا ماذا سيحدث عندما نتقدم أكثر بالسّن. هنا تكمن المشكلة!

صحيح أنّ أهلنا يعيشون معنا، لكنهم يعيشون في وحدة قاتلة، نراهم واجمين واللهفة والشّغف يغادران عيونهم. ما أسوأ أن نشيخ، أن نكبر ونهرم. كثيرًا ما ننسى أشياء لم نكن ننساها في الماضي، مثل الأسماء والأرقام، ننسى الوعود والقرارات.

كبرنا لدرجة أصبحنا نلبس نفس الملابس يومين وثلاثة أو أكثر. صادفني شخص قبل فترة وجيزة، رأيته يقترب من بعيد وابتسامته تعلو وجهه، بادرني بالتّحيّة فاتحًا ذراعيه، مُقبلًا خدّي بشغف واشتياق كبيرين. جاريته في مشاعره واهتمامه، وبعد تبادل أطراف الكلام وجدت نفسي أسأله: "بعد ما "هريتني" تبويس عندي سؤال، مين حضرتك؟!

أصبحنا نفرح صامتين ونبكي صامتين. تخيّلوا ردود فعل الأبناء والأحفاد عندما ينسى الجد أو الجدة أدق التفاصيل نتيجة اصابتهم بمرض "الخرف". الضحكات تعلو من كل صوب، والنكات تتعالى. هل هذا مصيرنا نحن أيضًا في المستقبل؟! هل سنكون عرضة لسخرية وشفقة أبنائنا وأحفادنا؟!

هناك من يقول، مواسيًا نفسه، أنّ العمر مجرد رقم، أو أنّ "الشّباب شباب الرّوح". اعذروني لكنه "حكي فاضي"، الجسم لم يعد كما كان. رغم أننا في بعض الأحيان ننسى أننا كبرنا. يعني تصادف أحدهم في الشّارع يتصرّف بوقاحة. تحس أنك تريد أن تنزل من سيارتك وتضربه، عندها تقوم زوجتك بتذكيرك أنك قد كبرت ولم تعد ذلك الشّاب اليافع الذي كان يمشي مزهوًّا بنفسه ومستعرضًا عضلاته أمام الملأ. وحينها تقوم زوجتك بتذكيرك أنك لم تعد كذلك قائلة: "بلاش تبهدل حالك". تسمعها تقولها دون أن تنظر إليك حتى.

تقف بالدّور أو في الباص، فتجد أحدهم يقف كي تجلس لأنك كبرت ومن الواجب والذّوق أن تجلس. والأدهى من ذلك عندما تسمع أحد الشّباب من الأقارب

يناديك "عمي"، والأصعب من ذلك عندما يصادفك أحدهم قائلًا: "تفضل يا حاج".

قد يكون الأمر احترامًا وتقديرًا كما نريد أن يفعل أبناؤنا وكما سعينا إلى تربيتهم. لكننا داخليًا نرفض ذلك، نريد أن نبقى شبابًا، لا نريد أن نكبر، لا نريد أن نشيخ. لا نريد أن نرى الشّعرات البيضاء في رؤوسنا.

تبًا لبيت الشعر القائل:

عيّرتني بالشّيب وهو وقار ليتها عيّرت بما هو عار.

قبل أسبوعين صادف عيد ميلادي. هذا سبب لاحتفال الأهل والأبناء. آآه كم أكره هذه الاحتفالات وهذه المناسبات. ليتكم تشعرون بما أشعره تجاه هذه الاحتفالات، وكم أكره الشّموع المتراصّة على كعكة عيد الميلاد والتي تتزايد مع سنين العمر.

لكن... رغم كل ما ذكرت آنفًا، سوف أظل أكرّرها: ليست العبرة بالسّنين، ولكن العبرة ماذا قدمت فيها وكيف عشناها، الأفكار العطاء والقلب الطّيب لا يهرم. أمّا الجسد فلا بدّ أن تترك الأيام بصمات خيباتها ودقائقها وساعاتها. كُن وقورًا بعقلك، شابًا بذهنك وفكرك، كريمًا معطاء لمن حولك، لن يغيب عنك الشّباب وإن رحل.

هل نستطيع أن ننهي بدون طرفة:

"حدّثني أحدهم قائلًا: دخلت البيت ورأيت أبي مضطجعًا، والدّموع تترقرق من عينيه، جلست جنبه ومسحت دمعته بيدي وقلت له: فديتك يا أبتي، تؤلمني رؤية دموعك. أرجو ألّا أراها أبدًا. فجأة وبدون سابق إنذار شعرت يد أبي الثّقيلة تنهال على رقبتي وهو يقول: "يا ثور، حطيت قطرة بعيوني وانت مسحتها بغبائك".

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة